جواب رسالة حزينة (١)

للاستاذ مصطفى كامل

أترى فى الناس أحداً ينفر من انسان كان مريضا مداويا خبيثا ثم برئ منه ؟ وإن نفرا يقره الناس على هذا الخوف السخيف أم يستحمقونه ؟ ثم ما الفرق بين المرض الجسمانى وبين السقطة الخلقية وكلاهما مرض قد يبرأ منه المريض ؟

ثم ما ذنبه ؟ أيمكن أن انساناً يطلب المرض بمحض اختياره أم ترى أن المريض ضحية بائسة لا تتمنى على الله شيئاً فى الدنيا إلا البرء منه ؟ ولو أن إنساناً ترك لهواه ولما طلب إلا أن يكون صحيح الجسم سليم النفس

ثم ما فضل السليم على المريض أو الذكى على الغبى ؟ وما فضل الكريم على اللئيم ؟

هل يمكن أن يكون أحد من الناس من عمل نفسه ، أم هو من عمل الأسلاف والبيئة والأجواء والتعليم والثروة وظروف الحياة ؟ أليس الفرد نتاج ملايين من العوامل المتفاعلة التى تكوننا وتجعلنا فى الصورة التى نحن عليها ؟

أترى أحداً استطاع أن يكون ملكا ولم يرض ، أو نبيا ولم يفعل ؟ أو ثريا ولم يقبل ؟ فوالله لو أن أمور الدنيا فى مكنة الناس لكانوا ملائكة جميعاً

طبعت على ما فىّ ، غير مختـــير
هواى ، ولو خُيرت كنت المهذبا

كلما عرضت لى فى أمور الحياة مثل حال هذه الفتاة ، خطرت ببالى جملة رائعـــة ما أزال أذكرها ، لبول بورجيه ، فى كتابه « التلميذ » قال : « أيمكن أن نحترم لاعب الروليت الذى يلعب عشر مرات متواليـة على الأحمر أو الأسود ، ألا إنما الفضيلة والرذيلة هما الأحمر والأسود ؛ والفتاة الشريفة ، واللاعب المحظوظ سواء فى المواهب »

ألا إنما الفاضل من الناس فاضل بسبب الظروف التى عصمته ، والمجرم من الناس مجرم بسبب الظروف التى أضعفته .

ولو أن المجرم وضع مكان العالم الورع الشريف وله نفس العوامل فى الماضى ، ونفس الحوادث فى البيئة وأوضاع الحياة ، لما كان إلا الرجل الفاضل الورع الشريف . ولو أن امرأة شريفة عرضت لها نفس عوامل المرأة التى سقطت لما ظلت امرأة شريفة ، وإذن فما فضل إنسان على انسان ؟ ألا أنا كلنا من عمل ما لا نملك فى نفوسنا مما قد يرجع الى ما قبل وجودنا

لقد كنت فى إحدى القهوات مرة ، فلمحت مريبا معروفا جالس الناس وأخفى بيده مسدسا فى جيبه ، وهو مع ذلك رجل كان يجب أن يكون له من تربيته حصانة فلا يتدنى . ومن ورائه حائل فلا يسفل ، ولو لم يكن من ظروف هذا الرجل ما يحميه من الاسفاف لما كان إلا من ضربة القانون .

وإذن فما ذنب مريض قد مرض برغم أنفه ، ثم بعد ذلك قد برئ ، ومع ذلك فما معنى أن يجعل الماضى جزءا من الحاضر ، وان يجعل من لوثة هذا الماضى رجسا للحاضر ودنسا للمستقبل ؟

لقد مات هذا الماضى ولم تعد له من علامات الحياة وأسقامه الا ذكريات من عمل الرءوس وخيالات النفوس

ليبض هذا الصديق فى حنه ، فليس فى الدنيا كافة مايعدل القلب المفعم بالحب بهجة ولذة وسعادة ، وليبض قلبه بهذا الحب قبل أن تسكن نأمته ، وليملأ بيته وعشه الجميل قبل ان يوحش قفره ، وليتعم حياته بالامل والحب والجمال قبل أن تجف الحياة ؟

(١) انظر العدد الثالث والعشرين ص ١١